الفصل الخامس

من تيماء إلى تبوك

في ١٣ يناير ١٩٥١م قلنا وداعاً لتيماء واللاندروفر، وانحشرنا في اللوري لنشق الطريق إلى تبوك. وكان عداد السرعة معطلاً، وهذا عيبٌ أساسي في أي سيارة تستخدم في الترحال والاستكشاف وكان رفاقي لا يزالون مهتاجين وغاضبين تبدو عليهم نزعة التمرد، التي استطاعوا أن يطلقوا لها العنان بما يُرضي قلوبهم، وهم محشورون في مؤخرة السيارة مع متاعنا ومخزوننا من المؤن وأشيائنا الأخرى ليقعدوا أو يرقدوا كلما اهتزت السيارة أو ارتجت وهي في طريقها غير السهل على الأرض الوعرة.

وقد ركبت أنا في وضع مريح نسبياً في المقعد الأمامي العريض باللوري، مع السيد، السائق، وهو لا يزال هادئاً رابط الجأش، مُبرّءاً من العيوب والأخطاء، وجلس الدليل الجديد بيننا. وكان يُدعى سلامة بن علي من بني عطية، والذي سوف يَعْتَمد عليه - بقدر ما يهمني الأمر - نجاحُ هذا الجزء من رحلتنا وسعادتنا بها، وقد خيّم علينا شعور بالإحباط واليأس، الذي نادراً ما يُفضي إلى

التفاؤل، بيد أن المسافة التي سوف نقطعها، نحو ١٥٠ ميلاً أو أكثر قليلا في طريقنا، لن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام، وكنت أنوي وأخطط لصرف كل الجماعة الذين معي من الخدمة، ما عدا السيد وشاحنته، عند وصولنا إلى تبوك، فمنها ستكون عودتهم إلى المدينة أكثر سهولة ويُسراً من تيماء. وعلى كل حال سوف أحتاج لفريقٍ جديد بالكامل لاستكشاف " المناطق الشمالية " الهامة، كما كانت المنطقة تسمى رسمياً. وفي الحقيقة، ولكي نهون من وقع الأمور، فقد قطعنا المسافة فيما يزيد فقط على عشر ساعات من القيادة الفعلية للسيارة، على مدى ثلاثة أيام، أي بمعدل خمسة عشر ميلاً لكل ساعة من ساعات سير الشاحنة، على الرغم من أن سرعتها لم تكن منتظمة، وذلك اعتماداً على طبيعة الأرض، التي كانت تتراوح بين جيّدة وسيئة إلى معتدلة.

وبعد أن سلكنا نفس الدروب التي أتينا منها عبر آثار فاو الطليحة، وبعد أن عبرنا الفروع العديدة لشعيب الرضّم فقد التزمنا الضفة اليسرى منه صاعدين إلى منطر بني عطية، حيث توجهنا إلى الجريدا، إن هذا الاسم يخص -في الحقيقة- الهضبة نفسها وليس خطوط تصريفها، التي يبدو أنه يوجد منها ثلاثة على الأقل تتدفق في اتجاهات مختلفة. وقد وصلنا إلى رأس القناة التي تصرف في حوض تيماء على بُعد نحو خمسة عشر ميلاً من خارج الواحة. ومن

هنا كانت تمتد منطقة منبسطة نسبياً، وتضم سبخة كبيرة سماها دليلي -دون تأكيد واضح- خبرا المحجة (على الرغم من أنه لا يوجد رابط بينها وبين وادي المحجّة المذكور آنفاً)، وبعدها بأميال قليلة جئنا إلى ما كان يبدو أنه اثنان من فروع التصريف الأخرى، يتدفقان في اتجاهات معاكسة تماماً بكل ما في الكلمة من معنى. والفرع الهابط عن يسارنا قد صعدناه من قبل عند اقترابنا من تيماء، بينما يسير الآخر باتجاه الشمال - الشرقي حتى سبخة جَريش الكبرى، الممتدة على طول سلسلة جبال بالاسم نفسه. هذه القناة تنضم إليها في نقاط مختلفة خطوط تصريف من سلاسل الجبال المختلفة، مرتبة في نسق مرتب على طول خط يمتد من الغرب تماماً مروراً بالشمال - الغربي والشمال حتى الشمال - الشرقي. وهي من اليسار لليمين جبال الرحل التي تقع خلف جبل المعيزيلة (وهو أعلاها جميعاً بهضبة بها قمة حادة منحدرة الجنبات وذورة بارزة) ثم البياضية وجبل ضبع والغمرة، والجريش. وتوجد في ضبع قمتان كبيرتان، وفي الغمرة قمة واحدة.

ومن هذه النقطة دخل مسارنا منطقة جديدة، تتجه نحو الغرب مسافة ما باتجاه الفجوة بين البياضية وضبع، حيث سيغير اتجاهه مستديراً نحو الشمال - الغربي. وقبل أن نصل إلى هذه الفجوة عبرنا قناة الجريدا الرئيسة في منطقة كانت الأرض فيها تزداد وعورة

كلما اقتربنا من الجبال. وكانت مغطاة بصورة طيبة بالأعشاب والنباتات، على الرغم من أن الكائن الحي الوحيد الذي أزعجناه خلال عبورنا كان صقراً صغيراً وفريداً. وربما كان الصيد الذي يزاوله عبد الله بن فيصل وآل السديري قد أخاف الغزلان التي كانت موجودة هناك من قبل ودفعها للنزوح، ونحن نعلم حقاً أن الصيادين قد سلكوا هذا الطريق في مسارٍ يعبر القناة ويتجه للشمال - الشرقي نحو سبخة كبيرة أخرى تسمى العسافية (أو ربما كان اسمها الصفية) وهم في طريقهم إلى رمال النفود من ورائها.

وواصلنا سيرنا نحو الأرض الصخرية المرتفعة التي تشكل القاعدة لمختلف سلاسل الجبال، وتوقفنا لتناول الغداء قرب بروز منخفض من الحجر الرملي معزول عن طرف جبل ضبع قبل دخوله في الممر الواسع بين التلال، وعندها سوف نفتقد جميع العلامات الأرضية المألوفة في المنطقة خلفنا. وتقع قمة غنيم على بعد درجات قليلة للجنوب من الشرق مباشرة، وفي هذا الاتجاه كانت تيماء نفسها قد اختفت عن الأنظار بسلاسل جبال الهضبة بيننا وبينها، والى البعيد جدا نحو الجنوب - الغربي كنا نستطيع أن نرى جبل المطلع والنقاط الشاهقة الأخرى من منطقة حرة العويرض وحرة الرحاء البركانية العظيمة، خلف خط السكة الحديدية بين قلعة المعظم وتبوك. وأمامنا، من خلال الفجوة، رأينا بعض المعالم الأرضية التي سوف

نمر بجوارها في الوقت الملائم وهي جبل السلاعو وراء الطرف الأيمن لجبل البياضية وجرف الضاحكية المنسّقة من الحجر الرملي، والتي يسير بينها الطريق. (التصريف الداخلي لمياه المنحدرات المحيطة بالقناة يتدفق للخارج من خلال فجوة ضبع - البياضية)، وينحني مستديرا على طول سفح ضبع حتى سبخة الجريش وأخيراً، في القناة نفسها بمحاذاة طريقنا، توجد مجموعة دائرية من الأعمدة والتلال الصغيرة المفككة من الحجر الرملي، تسمى ربيك ضبع وهي متاهة رائعة متشابكة من أشكال جميلة، تشكل نوعاً من النصب الطبيعية حيث توقفنا عندها برهة للتأمل والإعجاب بها وفحصها، على الرغم من أنني فشلت في العثور على أي نقوش أو حتى صور على الصخور.

وصعدنا الآن قناة السلاعو ورافدها الشعيب الذي يسمى قليب القنيص الذي تتدفق سيوله المجتمعة على طول الحافة الشمالية لضبع حتى سبخة الغمارية على الجانب البعيد من جبل بالاسم نفسه. وفي المنخفض كانت توجد غابة صغيرة من شجيرات الطلح عند حافة السبخة التي تحتفظ بالمياه لشهور عدة في مواسم الأمطار الغزيرة. وكان الممر لعبورنا بين هذه القنوات والجبل الحجري المنخفض على طول ضفافها اليسرى يضيق بالتدريج من ميلين إلى أقل من ميل واحد، وكان دربنا محصوراً بين جبل برقة في نهيا وجرف

الضاحكية أثناء صعوده وهبوطه في منطقة منخفضات جرداء تزداد اتساعاً باستمرار.

وفي أثناء الأصيل كنا نواجه بصورة متقطعة أحياناً بأسراب كبيرة حقاً من الجراد، في أودية مليئة بالنباتات، وأحياناً منتشرة في كثائب متناثرة بالمنخفضات الصخرية، كما لو كانت تستعد بتركيز قواتها لتجديد هجومها على إمدادات الطعام المحلي، وقابلنا بالصدفة أيضاً زوجين من الغزلان في المراحل المتأخرة من سيرنا. وبعد المنخفضات دخلنا ونزلنا في قناة تصريف المياه لشعيب الخوينات الذي يحده امتداد جبل الضاحكية وسرعان ما تتصل بقناة أكبر منها لشعيب العقلة وهو أحد خطوط التصريف التي تتصل مع بعضها لتكون آبار الفجر أحد روافد حوض الحاوي الصحراوي الكبير عند الطرف الجنوبي لوادي السرحان بيد أنه نظراً لتأخر الوقت فقد قررنا أن نخيّم حيثما كنا في رافد صغير لشعيب العقلة إلى حد ما أسفل التقاء شعيب الخوينات مع العقلة.

وكان الوادي الصغير الذي كنا فيه يشتهر باسم وديّ النعام (أي الوادي الصغير)، وسمي بهذا الاسم ربما لأنه كان مسرحاً لبعض النعام العربي المتناقص (Struthio) وانقرض الآن تماماً. إن نقطة تقسيم جميع خطوط التصريف هذه المؤدية إلى وادي الفجر يبدو أنها سلسلة جبال الغردل واللبدة (العبده؟). وعلى العموم كان مكاناً

موحشاً أجردَ نسبياً تميزه جبال منخفضة مسطحة ومنخفضات متموجة، جرداء وحجرية في معظم أجزائها. ويطوق جبل الضاحكية وجرفه الضفة اليمنى للعقلة، وتستمر نحو الشمال في هضبة الزبليات المنخفضة، بينما على الضفة اليسرى يستمر جبل اللبدة بالكامل حتى فجوة واسعة، حفرها وادي الكلبة بعد التقائه مباشرة بالعقلة، الذي أصبح من أسفل هذه النقطة يعرف باسم "وادي القَليبَة" وفي شمال الكلبة تمتد مرتفعات البيضا.

وكانت أسراب الجراد واضحة مرة أخرى للعيان عندما واصلنا رحلتنا في شعيب العقلة حتى ملتقى الكلبة، وراء تل معزول مباشرة والذي كان يفصل الجدولين عن بعضهما. وتتراجع التلال الآن لتكوّن سهلاً يبلغ اتساعه نحو ميل أو أكثر، والذي تتدفق خلاله الأودية حتى آبار وقاعدة القليبة العسكرية في النقطة التي يضيق فيها مرة أخرى ليمر من بين جبال شاهقة. إن احتجاز مياه السيول في هذا المخرج الضيق قد وفر رطوبة دائمة في طبقات التربة التحتية، التي نما وازدهر فوقها عدد هائل من أشجار الطلح الطويلة الباسقة، في حين تتناثر هنا وهناك الحدود الخارجية للحقول التي كان يُزرع فيها محاصيل الحبوب. والمنطقة المتسعة من الوادي بعد المناطق الضيقة مباشرة تبلغ حوالي ميلين من الاتساع، ومن الواضح أن هذه المنطقة قد سكنها البشر منذ قديم الزمان، على الرغم من أن

استعمالها الحالي والإقامة فيها كمركز حدودي فرعي يعد حديثاً نسبياً. والبئران المستخدمان لهما فوهات دائرية ذات أربعة وخمسة أقدام على التوالي، وكانتا مبنيتين بناء حسناً من طوب بحجم صغير من فتحتيهما حتى مستوى الماء فيهما، الذي يوجد على عمق خمس قامات. وهناك العديد من الآبار الأخرى في المنطقة، وهي الآن ميتة ومهجورة، أو لم يُستأنف تشغيلها حتى الآن. وبالقرب من البئر الرئيسة كان يبرز ما كان يبدو أنه شاهد كبير على ضريح، فيه اسم ثمودي كتب في وسط شبه دائرة صغيرة من أحجار صغيرة، ومما لا شك فيه أنه قبر قديم، حيث كان من الواضح أن الشاهد في وضعه الأصلي أو الطبيعي. وقريباً منها، كان يوجد على ما يبدو قبر آخر، تشير إليه أحجار على مسافات متباعدة على طول ثلاثة أضلاع من مربع، مع إشارات غامضة لكتابة قديمة على بعض الحجارة.

وعلى مقربة من الآبار -ولكن على المنحدر السفلي للجبل- تقف قلعة من الطين لحامية صغيرة تضم ثلاثة عشر رجلاً وقائدهم، بينما يتناثر قليل من البيوت حولها. وقد كانت بمثابة مأوى لعوائل هؤلاء الرجال الذين كانوا يسعون جاهدين لجعل منفاهم هنا أخف وطأة عن طريق عقد قرانهم على بنات قبيلة بني عطية، التي تقطن الصحراء المجاورة لهم وكان عبد العزيز التويجري، القائد، غائباً في الحقيقة عند وقت وصولنا لزيارة بعض الخيام القبلية، ولكن رسولاً

قد أرسل لإشعاره بوصولنا، وقد عاد في الوقت المناسب ليستضيفنا على الشاي والقهوة قبل أن نواصل سيرنا. وفي غضون ذلك، تسلقت على الأجراف المطلة على فوهة المنخفضات لإلقاء نظرة بصورة أفضل على المنطقة، ولمحاولة أن أفك رموز متاهة القنوات التي تنقل مياه هذه المنطقة كلها، ومنها المنحدرات الشرقية للجبال النائية التي تحد حوض تبوك العظيم، في الشمال.

ومن هنا فصاعداً بدأنا نسير باتجاه الشمال - الغربي، وكنا على بُعد حوالي ٧٥ ميلاً من تيماء، أو في منتصف الطريق تقريباً إلى تبوك، بيد أننا من هنا سوف نضطر للالتفاف جنوباً من الغرب حتى نمر من خلال سلسلة جبل الظفير، التي كان باستطاعتنا أن نراها من النقطة المرتفعة التي نقف عليها. وكان جبلُ خنصر الطويل، ذو النتوءين اللذين يشبهان الإصبعين في طرفه الأيمن، يغطي عدة درجات في الشمال - الغربي على طول حدود الأردن. كذلك كنا نستطيع أن نرى فقط قمم الجبال البركانية على مسافة بعيدة في الشمال، مع موقع بئر وادي الفجر ومركز المغيرة الحدودي السعودي الفعلي من ورائه على اليمين، وعلى مسافة بعيدة أيضاً عندما استدرنا نحو الشمال - الشرقي يقع جبل الزبيليات وهو خط طويل ومتقطع من صخور الحجر الرملي المتكسر، مع خمس أو ست نقاط ذات بروز صارخ. والتلال المنخفضة المبعثرة على طول الضفة

اليسرى لنظام الوادي الذي يشكل رأس وادي الفجر تُعرف باسم قوار القليبة مع رافد آخر قديم لوادي الفجر هو شعيب العرادة، يتدفق على طول جانبها الآخر.

وعلى طول حافة هذه التلال استأنفنا سيرنا بعد أن غادرنا مضيفينا، الذين كانوا يبدون سعداء تماماً في منفاهم النائي، ويزيدهم سعادة أكثر رؤية وجه -بصورة عرضية- من العالم العظيم البعيد عنهم. وفور أن اختفى جبل القليبة تقريباً عن أنظارنا، أتينا على مجموعة من الآثار على الهضبة المنخفضة بالضفة اليسرى للوادي، حيث عزمنا على أن نضرب عصفورين بحجر حيث قررنا فحصها مع توقفنا لتناول الغداء.

وكان هناك حوالي عشرين من مجموعة هذه الآثار المتناثرة حول القمة المسطحة لجبل حجري وعر، وهي ربما كانت قلاعاً قديمةً أو متاريس مهدومة أو -على الأرجح- قبوراً فردية أو جماعية. وقد التقطت صوراً لعدد من وحدات منتقياتٍ منها، وأخذت قياساتها، بيد أنه كان من الواضح أن سلامة لم يرها أبداً من قبل، ولا يدري شيئاً عن تاريخها، مع أنه كان يعتقد أنه لا بد أن تكون من عمل بني هلال، الذين تنسب إليهم بصورة شائعة مثل هذه الإنشاءات كلها، في أثناء هجرتهم التقليدية من جنوب الجزيرة العربية إلى مراكش البعيدة. وكان مقاس أحد المجموعات، البيضوية الشكل، يبلغ

٢٧ × ٢٠ قدماً، في حين كان يبلغ قياس مجموعة مستطيلة الشكل ٥٠ × ١٥ قدماً، وأخرى كانت كتلة صلبة من بناء مهدّم غير مملطة أبعادها ١٥ × ١٠ أقدام، ربما كانت قبر الشيخ، مع دائرة من الحجارة تمثل نوعاً من الفناء أمامه قطرها ١٥ قدماً. وفي جميع تلك الحالات كانت دوائر ألواح الحجر الرملي موضوعة على أطرافها بدون أي محاولة للتشذيب. وكانت مجموعة أخرى منها توحي بشبه كبير مع قبور سبأ في جنوب الجزيرة العربية (مثل محياش على سبيل المثال). ومعنى ذلك أن الواحدَ منها بناءٌ من ألواح مشذبة قليلاً، ودائري تقريباً. يبلغ محيطه ٥٠ قدماً، وارتفاعه ٤ أقدام تقريباً.

وكان داخلُ هذا القبر -ومع أنه كان مليئاً بالرمل- يبدو أنه كان مجوفاً باتساع يكفي لدفن الجثة. وأمامه كان يوجد طوق مستطيل غير كامل من الألواح موضوعة على حوافها، طولها ٥٠ قدماً على أحد الجوانب، وعرضها ٣٢ قدماً وطولها حوالي ٤٠ قدماً على الجانب الثالث الذي ينتهي بدائرة محاطة بحجارة. لقد كان من الصعب تفسير مغزى هذه الآثار، إنها ربما كانت على الأرجح ذكرى لمعركة من قديم الأزل، على الرغم من أننا لم نجد نقوشاً أو مؤشرات أخرى عن مصدرها أو منشئها. وكانت على بُعد أقل من ميلين شمالاً - شمال - غرب من القليبة. وقد التزمنا الوادي في الاتجاه

نفسه مسافة ميلين آخرين من قبل أن نأتي إلى النقطة التي يلتقي عندها شعيب العرادة بكوكبة من خطوط التصريف التي تشكل وادي الفجر هنا أو أبعد قليلاً، وهنا استدرنا مبتعدين وصعدنا لنسير على طول العرادة باتجاه الجنوب - الغربي، في زاوية مستقيمة تقريباً مع مسارنا السابق، بعد أن قطعنا ربما نحو ثمانين ميلاً من تيماء. ومن الطريف أنه من المرجح كثيراً أن يكون الطريق الذي سلكه غوارماني الذي يصعد بالتأكيد على وادي الفجر، لا بد أنه كان يمر على القلية، ومن هناك على طول مسارنا تماماً حتى تيماء.

وحيث إنه كان آتياً من المنطقة المجاورة لمعان وليس من وادي السرحان، فلا بد أنه قد دخل وادي الفجر على مسافةٍ ما أسفل النقطة التي وصلنا إليها الآن. ومنطقة التلال على الضفة اليمنى للعرادة كانت لا تزال تعرف باسم قوار القليبة وبعد هنيهة انحرفنا عن الوادي إلى رافد لا اسم له، ربما كان هو شعيب ظفير الذي يرتفع في انحدار واضح إلى جبل الظفير الشاهق أمامه، وهنا واجهنا مرة أخرى مجموعة ثانية من الآثار المبنية بصورة غير مستوية من الحجر الرملي مثل المجموعات التي سبق وصفها آنفاً، على الرغم من أن حالتها كانت أقل جودة من الأولى من ناحية تماسكها وبقائها، وكنا نصعد دائماً بصورة مستمرة منذ دخولنا شعيب العرادة، ولم يمض وقت طويل حتى مررنا بجيب عميق بين أكتاف

الجبل الناتئة، التي كانت تضيق بالتدريج حتى أصبحت مثل النفق عندما اقتربنا من سفح الممر، ومن هناك كان صعودنا اليسير نسبياً على درب يبدو من الواضح أنه قد نال قدراً من العناية والاهتمام قد أدى بنا إلى مضيق بين قمتين، حيث عزمت على قضاء الليل هنا، حتى نتسلق إلى قمة الجبل لإجراء مسح عام. وربما كانت هذه القمة ترتفع حوالي ٥٠٠ قدم، بينما كان المضيق مرتفعاً نحو ١٠٠٠ قدم فوق السهل على الأقل من كلا الجانبين.

وهنا ألقينا نظرة رائعة على مجموعة الأجراف المثيرة التي كانت تتراص على الضفة اليمنى لشعيب العرادة، ويمتد جبل الظفير الشاسع من ضفته اليسرى في زمرة عريضةٍ من المرتفعات الرائعة حتى المضيق مسافة تبلغ خمسة أو ستة أميال بعد ذلك. ومن المضيق -حسبما كنا نستطيع أن نرى من أعلى- كان الطريق يهبط بسهولة ويسر نسبياً نحو أربعة أميال على المنحدر الغربي قبل أن يلتف بصورة حادة لليسار نحو منطقة طعوس العرقانة الواسعة ذات التلال الرملية الصغيرة، والتي تسد الطرف الجنوبي لحوض تبوك، ولم يكن هناك أي معلم مميّز من المعالم الأرضية التي يمكن مشاهدتها في هذه المرتفعات القاحلة الكئيبة، والتي كان في أوديتها الكثير من النباتات، معظمها من نوع الرغل والبعيثران على الرغم من أنه لم يقدر لنا أن نرى أيَّ شيء حي أبداً على المنحدرات والقمم الجرداء.

ومع هذا فإن القليل من المطر سوف يحيلها على الأرجح إلى حدائق بريّة مزدهرة، وكان أمامنا دليل واضح من أثر دروب الإبل الصاعدة حتى أعلى المستويات ليثبت لنا أن الذين تركوا الروث قد اعتادوا اللجوء إلى هذه المراعي المرتفعة ليدخروا مخزوناً من العلف للصيف. ومن الطريف أن وادي العرادة كان القناة الوحيدة في هذه الأصقاع التي كانت تزخر بمياه السيول خلال هذا الموسم، وقد رأينا علامات مرورهم في كثير من البرك ذات المياه الراكدة، إلا أن شعيب ظفير كان جافاً تماماً على طول مجراه بالكامل.

وقد دهشت عندما اكتشفت أن سلامة يبذل جهداً مضنياً في تسلقنا بصعوبة بالغة على المنحدر المغطى بالحصى والحجارة حتى القمة، وروى لي قصة إصابته بجرح في فخذه أثناء الثورة العربية في مناوشة مع الأتراك قرب محطة السكة الحديدية بقلعة الأخضر التي كانت تلالها واضحة للعيان من حيث كنا نجلس. لقد كان يمشي بعرج، ولكنه لم يكن يعاني من أي صعوبة في المشي على الأرض المنبسطة، على الرغم من أن المناطق الجبلية والتلال كانت تسبب له قدراً عظيماً من الألم. أمّا الجزءُ الأشد إثارة في قصته فهو أنه أثناء فترة شفائه ونقاهته من جرحه، قد جاء إلى هذا المضيق نفسه ليتمتع بالمراعي الغنية في ذلك الوقت، والتي نتجت من أمطار عام ١٩١٦م. وخلال وجوده هناك رأى زوجاً من البقر الوحشي في

الشعيب الصغير الذي كنا نخيم فيه الآن. لا بد أن ذلك قد حدث قبل زيارتنا بخمسة وثلاثين عاماً، ومنذ ذلك الحين انقرضت الأبقار الوحشية من كل شمال الجزيرة العربية منذ عقد من الزمان على الأقل. لقد كان سلامة رفيقاً دمثاً ولطيفاً، ولكنه كان دليلاً مخيباً للآمال ومحبطاً، ليس لديه إلا النزر اليسير من المعرفة عن الجغرافيا المحلية لمنطقة عاش فيها طول حياته تقريباً. وكان ينقصه فقط الفضول وحب الاطلاع اللذان يصنعان دليلاً ماهراً أو مكتشفاً حقيقياً.

وغربت الشمس في وهج بهيج من التألق والبهاء خلف سحابة سمراء نحيلة، وأشعتها الساحرة تندفع كالسهم إلى العلياء من كرة غير مرئية. وعلى الرغم من ارتفاعنا إلا أن الليل كان معتدلاً بصورة مدهشة، ولم يكن فيه ندى. بيد أن محمد العريفي سقط فجأة بنوبة عنيفة من الحمى وبسببها ناولته حبات من الأسبرين كان مفعولها مرضياً. ومن الممر فصاعداً كان الطريق يسير في وادٍ يتراوح بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ياردة، والذي يحجز مياه تصريفه في القاع سد من تلال العَرْقَانَة الرملية ليشكل بحيرة ذات اتساع كبير، على الرغم من أنها جافة الآن تماماً. وهنا وهناك كان الرمل المنجرف مع التيار يغطي الجبال على جانبي مسارنا، وفي القاع تسلقت أنا وسلامة انهياراً رملياً لنلقي نظرة على المنطقة التي سوف نسير فيها الآن، ولم يكن هناك شيءٌ ذو بال ما عدا المنظر العمومي الرائع للبراكين الخامدة في

الحرّة خلف السهل الغائر الممتد من سفح الظفير حتى خط السكة الحديدية. وقد لا قينا بعض الصعوبة في بقع من الرمل الكثيف، الذي انجرف عبر مسارنا، إلى أن خرجنا في ممر بين النفود وجبل غَوَانم الذي يستمر باسم الظفير نحو الشمال بعد انقطاع قصير، وهذا أدى بنا إلى سهلٍ مفتوح، وبعد المسير مسافة تقرب من سبعة أميال جئنا إلى قناة شعيب الأخضر العامر بشجيرات الغضا والنباتات الأخرى، الذي ينزل من الحرّة المرتفعة على مقربة من محطة قلعة الأخضر إلى البحر الداخلي لحوض تبوك

وقد واصلنا مسيرنا على سهل أجرد من الحصباء والصخور الرملية، بينما بدأت تهب عاصفة من الجنوب، بريح عاتية ورمال متطايرة، غطت الأرض بضباب كثيف يسبب الضيق والأذى، حتى وصلنا إلى وادي غضي، وهو أحد روافد وادي الأخضر الذي ينحدر من جبل برْك البركاني خلف السكة الحديدية، ومن هنا تمكنا من إلقاء نظرات خاطفة خلال الضباب على جبال عَاجَات ذات الصخور الرملية المتناثرة والقمة المشهورة التي تشبه المنارة والمعروفة باسم "منبر النبي" في جبل شرورة إلى الجنوب. بيد أن العاصفة الرملية قد أصبحت أشد قسوة وعنفاً عندما وصلنا وعبرنا القناة التالية لوادي الأثل الذي يرتفع أيضاً في جبال الحَرَّة، والوتر، وشيبان ليلتقي بالأخيرين في بحيرة خبرا القصيم الطينية، ومن هنا

رأينا في غير وضوح نخيل تبوك أمامنا، وخلال نصف ساعة عبرنا خط السكة الحديدية جنوب المحطة مباشرة لنصل إلى قصر الحكومة المحلية المشيّد حديثاً من الخرسانة والذي يستخدم حالياً بيتاً للضيافة. ولقد قطعنا خمسين ميلاً تقريباً عبر السهل من مخيمنا في الليلة السابقة.

obeikandl.com